الموقف العربي من (الظهير البربري) في المغرب

أ. د. محمد علي داهش(*)

أ. صفوان ناظم داؤود حسن(**)

واجه الوطن العربي موجات متتالية من العدوان والاحتلال والاستيطان طوال العصر الحديث حتى الحقبة المعاصرة. وكانت أقطار المغرب العربي من أولى الأقطار التي عانت من وطأة العدوان الأوربي بعامة، والفرنسي والأسباني بخاصة.

تميزت السياسة الفرنسية في المغرب العربي بسمات عامة مشتركة تمثلت بالحكم المباشر وإنكار الحقوق الوطنية والتسلط الاقتصادي والإفقار الاجتماعي والاستيطان البشري، ناهيك عن العدوان على الهوية العربية الإسلامية في محاولة لـ (فرنسة) البلاد وإبقائها أسيرة التبعية للمركز الاستعماري[١].

(*) قسم التاريخ - كلية الآداب / جامعة الموصل

(**) قسم التاريخ - كلية الآداب / جامعة الموصل.

(١) للتفاصيل في هذا المجال يُنظَر:

علال الفاسي: محاضرات في المغرب العربي منذ الحرب العالمية الأولى، مطبعة نهضة مصر، (القاهرة ١٩٥٥)، ص ٥٥-٥٦، ٧١؛

كان العدوان على الهوية العربية الإسلامية أحد ابرز وجوه السياسة الفرنسية في أقطار المغرب العربي، وهدف ذلك تحقيق استراتيجية بعيدة المدى تخدم منطلقات الحركة الاستعمارية الحديثة التي لم تقف عند حدود الاغتصاب للثروة القومية، وإنما العمل على التفتيت والتفكيك القومي بمحاولة تجريد الشعب من لغته وثقافته ودينه ومن خلال غرس بؤر ثقافية واجتماعية واقتصادية وفق آليات مخططة تستهدف في مخرجاتها النهائية صنع حالة من الولاء والاتجاه نحو المركز الاستعماري (باريس)، وبذلك يكون الاحتواء التدريجي، والإقصاء عن البيئة الثقافية والحضارية العامة، فضلا عن البيئة القومية والدينية. وان ما يستتبع ذلك تطلعات متعددة

شوقي الجمل: المغرب العربي الكبير في العصر الحديث، مكتبة النهضة المصرية، (القاهرة، ١٩٧٦)، ص كثيرة؛

عبدالرزاق الهلالي: قصة الأرض والفلاح والإصلاح الزراعي في الوطن العربي، مطبعة الكشاف، (بيروت، ١٩٧٦)، ص كثيرة؛

عبدالله البارودي: المغرب، الإمبريالية والهجرة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، (بيروت، ١٩٧٩)، ص ٤٩ _ ٥١؛

سمير أمين: المغرب العربي الحديث، دار الحداثة، (بيروت، ١٩٨٠)، ص ١٢٢ _ ١٣٠؛

حكمت شبر: الجوانب القانونية لنضال الشعب العربي من اجل الاستقلال، دار الحرية للطباعة ، (بغداد، ١٩٧٥)، ص ٨٩ _ ٩٣، ١٤٨ _ ١٥٩؛

خيرية عبدالصاحب وادي: الفكر القومي العربي في المغرب العربي، دار الرشيد للنشر، (بغداد، ١٩٨٢)، ص ٨٨ _ ٨٩؛

كفاح كاظم الخزعلي: حزب الاستقلال ودوره السياسي في المغرب ١٩٤٤ _ ١٩٥٦، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة البصرة (البصرة، ١٩٨٣)، ص١١ _ ١٧.

الوجوه تخدم في النهاية استراتيجيتها البعيدة المدى التي بدأت آثارها الانقسامية تجتاح البيئة الاجتماعية المغاربية.

واجهت الأمة العربية في المغرب العربي هذا العدوان والاحتلال والاستيطان وما رافقه من سياسة تسلطية استحواذية في المجالات الحياتية كافة، بكل وسائل المواجهة العسكرية والسياسية والثقافية والدينية، للدفاع عن السيادة والهوية الوطنية والإقليمية والعربية، وقدمت من اجل ذلك تضحيات جسام[٢]. ولعل اخطر ما وجهته الأمة العربية في المغرب العربي، هو العدوان الفرنسي ومحاولة الإلغاء للهوية الثقافية والدينية لأبناء البلاد، بدأته في الجزائر مرورا بتونس، وأنضجته في المغرب، وكان ذلك بإصدارها (الظهير البربري) عام ١٩٣٠.

فرنسا وسياستها البربرية في المغرب

ابتدأت فرنسا سياستها العدوانية على الهوية العربية الإسلامية في الجزائر بعد احتلالها مباشرة عام ١٨٣٠، ومنذ عام ١٨٥٩ بدأت سياسة الفصل العنصري

---

(٢) للتفاصيل الأكثر، ينظر:

صلاح العقاد: المغرب العربي، مكتبة الانجلو المصرية، (القاهرة، ١٩٨٠)، ص ٣٩٣ _ ٣٩٥؛

يحيى بو عزيز: ثورات الجزائر في القرنين التاسع عشر والعشرين، دار (قسطنطينية ١٩٨٠)، ص ٢٩٦ _ ٣٦٣؛

الطاهر عبدالله: الحركة الوطنية التونسية، رؤية شعبية قومية جديدة، ١٩٨٣ _ ١٩٥٦ ، بلا، (د.ت)، ص ١٢١ _ ٢٨٣؛

علال الفاسي: الحركات الاستقلالية في المغرب العربي، نشره عبدالسلام حسوس (طنجة ١٩٤٨)، ص ١٠٦ _ ٢٨٨.

والثقافي والديني، إذ أصدرت قرارا يخرج مناطق (القبائل) البربرية من نطاق القضاء الإسلامي ومهدت بالإرساليات التبشيرية التي بدأت تنشر الدعوات المزيفة عن الاصوال التاريخية للبربر مدعية انهم أوربيون مسيحيون في أصولهم!! وان العروبة والإسلام أجنبيان عنهم!! واستغلت السلطات الفرنسية عوز الجزائريين وفقرهم الذي كانت سببا له، لأخذ أطفالهم وتنصيرهم، وتلقينهم اللغة الفرنسية وثقافتها، واعتقدت انها الطريقة الوحيدة لتذويب الجزائريين واحتوائهم في البودقة الفرنسية[٣]. وقد طبقت السياسة العدوانية نفسها على تونس بعد احتلالها (١٨٨١) بسنتين، ومن الجدير بالذكر ان الجهد العدواني الفرنسي في الجزائر وتونس، واجه مقاومة عنيفة ضد محاولات (الفرنسة) باستهداف اللغة العربية والدين الإسلامي، وضد سياسة التجنيس والإدماج فيما سمي بـ (العائلة الفرنسية)[٤] وكان ذلك بتمسك الشعب وواجهاته الدينية والثقافية وقواه السياسية والوطنية، بدينه ولغته والاستشهاد من اجل ذلك.

وفي الوقت نفسه، وانطلاقا من سياسة قومية عنصرية وتعصبية دينية وأهداف استراتيجية معروفة، أصرت سلطات الاحتلال الفرنسي على نهجها العدواني، واصبح المغرب بعد احتلاله مباشرة (١٩١٢) أحد مجالات التطبيق المخطط والهادف بقوة لإنجاح المشروع العدواني الفرنسي على الهوية العربية الإسلامية. إذ أصدرت السلطات الفرنسية المحتلة عام ١٩١٤ قرارا خاصا بـ (البربر) في محاولة لتشكيل كيانية ذاتية منفصلة عن الكيانية الاجتماعية والحضارية الموحدة للمغرب، وتوهمت السلطات الفرنسية ان أهالي المناطق

(٣) محمد عزه دروزه: الوحدة العربية، منشورات المكتب التجاري (بيروت ١٩٥٧)، ص ١٦٢ ـ ١٦٥.

(٤) دروزه: المصدر السابق، ١٧٥ ـ ١٨٨.

الجبلية والصحراوية وغالبيتهم من البربر (ان إسلامهم سطحيا وليس ببعيد ان يتنصروا ويندمجوا معها)[٥]. وقد إبنى خطأ الرؤية الفرنسية على كون هذه المناطق المغربية بعيدة عن السيطرة المباشرة للمخزن المغربي (الحكومة)، وكثيرا ما ثارت بوجه السلطة لأسباب معروفة، لكنها لم تكن بعيدة عن التمسك بالإسلام وشريعته ولغته على الرغم من سيادة بعض الأعراف القبلية بينهم، وعليه، كلفت السلطات الفرنسية مجموعة من منظريها برئاسة جورج سوردون أستاذ الحقوق الإسلامية!! وما أسمته بالحقوق العرفية البربرية لتبحث لها عن صياغة قانونية لأعراف البربر، وإخراجها في صورة من الحقائق، فخرجت أبحاثها ملفقة وجمعت تلك الأعراف بما أسمته السلطة الفرنسية بـ (قانون العرف البربري) عام ١٩١٤[٦].

إن إصدار هذا (القانون المدني) الخاص بالبربر عبر عن نضوج التجربة العدوانية الفرنسية التي استهدفت الهوية الثقافية والدينية والانتماء الوطني المغربي للبربر، وهو اتجاه عدواني عنصري محكوم بخلفية صليبية تعصبية، يوضح ذلك جودي فروي دمونين أحد القادة المنظرين للسياسة العدوانية بقوله: (لابد ان نستعمل لفائدتنا العبارة القديمة فرق تسد، ان وجود العنصر البربري هو آلة مفيدة لموازنة العنصر العربي، ويمكننا ان نستعمله ضد المخزن نفسه)، وفي الهدف العدواني نفسه كتب أحد موظفي السلطات الفرنسية في المغرب مقالة أكد فيه الإصرار

(٥) الفاسي: الحركات الاستقلالية، ص ١٤١ _ ١٤٢.

(٦) لقمان صالح احمد القطان: سياسة فرنسا تجاه البربر وأثرها في الحركة الوطنية المغربية ١٩٣٠ _ ١٩٣٦، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة بغداد، (بغداد ١٩٨٧)، ص ٣٦.

الفرنسي في العدوان على الهوية الدينية بقوله: (يجب ان نحذف تعليم الديانة الإسلامية في مدارس البربر، ويجب ان نعلم البربر كل شيء ما عدا الإسلام)[٧].

بذلت السلطات الفرنسية وبدعم وإسناد كبيرين من الحكومة الفرنسية والجمعية الوطنية الفرنسية والمؤسسات الكنسية والثقافية، جهودا كبيرا لنشر اللغة الفرنسية وثقافتها بين البربر ومحاولة تنصيرهم وفصلهم عن الوحدة الاجتماعية الوطنية والقومية. وعلى هذا الأساس أصدرت السلطات الفرنسية مجموعة من القرارات (الظهائر) اللاحقة في عام ١٩١٥ وعام ١٩٢٠ حتى عام ١٩٣٠ في محاولة(تنصير المغاربة وفرنستهم وإحداث تفرقة بينهم تتقد بسببها نار فتنة طائفية وعرقية ...)[٨]، أو تؤسس لاتجاه انقسامي في الوحدة الوطنية والقومية والدينية والحضارية عامة.

إن ابرز قرارات السلطات الفرنسية في المغرب، كان القرار/ المرسوم (الظهير) في ١٦ أيار / مايو ١٩٣٠ باسم (الظهر البربري) الذي تكون من ثمانية فصول. وكانت خطورة ذلك القرار العنصري ليس إخراج البربر عن سلطة المخزن المغربي (الحكومة)، وإنما إخراجهم من إطار التحاكم بالشريعة الإسلامية إلى التحاكم وفق أعرافهم وتقاليدهم، لا بل استئناف ذلك أمام المحاكم الفرنسية. وقد استخلص المغاربة من (الظهير البربري) ثلاثة أمور:

١. فصل قسم من المسلمين المغاربة عن القضاء الشرعي.

(٧) الفاسي، الحركات الاستقلالية، ص ١٤٢ _ ١٤٣.

(٨) عبدالوهاب بن منصور: محمد الخامس والظهير البربري، مجلة دعوة الحق، العدد (٢٨٢)، (الرباط ١٩٩١) ص ٥٨.

٢. ان تحول المسائل القضائية في مناطق البربر إلى المحاكم الفرنسية عد في نظر المغاربة والقوى الوطنية بمثابة خطوة لتنفيذ سياسة (التنصير) وإعلان (حرب صليبية جديدة).

٣. تمزيق وحدة السلطة المغربية، وعد ذلك خرقا صريحا لمعاهدة الحماية لعام ١٩١٢[٩].

بدأت فرنسا وسلطاتها في المغرب بوضع (الظهير البربري) موضع التنفيذ، واتخذت مجموعة من الإجراءات منها، تصعيد نشاط الإرساليات التبشيرية وزيادة أعداد المبشرين (اكثر من ألف مبشر) بشكل لم يسبق له مثيل منذ احتلال المغرب عام ١٩١٢، وتعيين عدد من رجالاتها المتعصبين والحاقدين على الإسلام في أهم الوظائف الإسلامية!! مثل العدلية الإسلامية، ومسؤول مكتب المطبوعات العربية، ومدير التعليم الإسلامي، ومسؤول مكتب الوثائق التاريخية، ليمارسوا نشاطهم العدواني على الهوية القومية والدينية من خلال هذه المواقع الحساسة. كما خصص البرلمان الفرنسي الاعتمادات المالية اللازمة لتصعيد حركة التبشير، فيما قامت السلطات الفرنسية في المغرب بتخصيص مبلغ يزيد على ثلاثة ملايين فرنك من ميزانية الدولة المغربية، إعانات للإرساليات التبشيرية، وخصصت الكثير من إيرادات الأوقاف الإسلامية!! للهدف ذاته[١٠] ولم تقف عند هذا الحد، بل اتخذت مجموعة من التدابير للتسريع من نشاط الإرساليات وتسهيل مهامها في الاستعمار الديني، فأقدمت على الحد أو إلغاء وجود العلماء المسلمين بين أبناء المناطق

(٩) عبدالكريم غلاب: تاريخ الحركة الوطنية المغربية، بلا، (الرباط، ١٩٧٦)، ج١ ، ص ٧٠ _ ٧٣؛ المكي المالكي: تطور الاستعمار الفرنسي لأساليب غزوه للمغرب إلى حدود ١٩٣٠، مجلة تاريخ المغرب، العدد(٧ _ ٨) (الرباط ١٩٩٨)، ص ١٥٢ _ ١٥٩.

(١٠) القطان، المصدر السابق، ص ٦٦ _ ٦٧.

المستهدفة بعدوانهم، فمنعت مزاولة العلماء لمهامهم الدينية والثقافية والتعليمية، وأجبرت البربر على إرسال أبناءهم إلى المدارس التبشيرية بحجة التعليم العصري(١١).

كان الظهير البربري لعام ١٩٣٠، وما أعقبه من قرارات مكملة خلال مرحلة الثلاثينات منظورا رؤيويا مستقبليا يستهدف وحدة النسيج الاجتماعي الوطني والإقليمي والقومي الموحد تاريخيا ودينيا وحضاريا وهو منظور استعماري استهدف الذات القومية والحضارية العربية الإسلامية في الصميم في محاولة لتشكيل معادل موضوعي معاد للعنصر العربي ودق أسفين مستقبلي لكيانية سياسية تضع البلاد في قلق وتوتر يقود إلى الصراع الداخلي والانقسام القومي والحضاري. ومن هنا أدركت العناصر الوطنية خطورة هذا الاتجاه الاستعماري، وبدأت في استجماع خيوطها والانطلاق بحركة وطنية منظمة واعية لأهدافها الوطنية العامة في العمل على انتزاع الحقوق المغتصبة وتحقيق حرية البلاد واستقلالها ووحدتها، فضلا عن الدفاع عن هويتها العربية الإسلامية، وكان ذلك بتأسيس (كتلة العمل الوطني المغربية) وبداية المواجهة الضارية والواعية ضد المشروع التعصبي التقسيمي المهدد للوحدة الاجتماعية الوطنية وللانتماء الديني والقومي والحضاري للمغاربة.

الموقف المغربي من السياسة البربرية

أدى العدوان والاحتلال الفرنسي والأسباني للمغرب عام ١٩١٢، وما تمخض عنه من إجراءات استعمارية سياسية واقتصادية واجتماعية، إلى ثورة

(١١) القطان، المصدر نفسه، ص ٦٨.

الشعب المغربي ضد الاحتلال الثنائي ومنذ عام ١٩١٢. ففي منطقة الشمال المغربي الخاضع للاحتلال الأسباني قامت الثورة المسلحة بقيادة الشريف احمد الريسوني واستمرت حتى عام ١٩٢٤[١٢]. وفي عام ١٩١٩ انطلقت ثورة الريف بقيادة محمد بن عبدالكريم الخطابي، واندمجت الثورتان تحت قيادة الخطابي عام ١٩٢٤ وواصلت الكفاح التحريري الشامل حتى عام ١٩٢٦[١٣].

أما في الجنوب المغربي الخاضع للاحتلال الفرنسي، فقد انطلقت الثورة المسلحة عام ١٩١٢ أيضا، واستمرت في مناطق جبال الأطلس والصحراء وجنوب المغرب متلاحمة مع كفاح الشعب الموريتاني ضد الاحتلال الفرنسي نفسه، حتى عام ١٩٣٤[١٤].

ان نهاية الكفاح المسلح والتي جاءت بسبب عدم التكافؤ في الإمكانات القتالية، أنضجت الوعي الوطني باتجاه العمل السياسي لانتزاع الحقوق الوطنية المغتصبة. كما أن صلابة الكفاح المغربي في مناطق البربر، نبه سلطات الاحتلال الفرنسي إلى محاولة بلورة اتجاه بربري معاد للوحدة الوطنية والدينية المغربية، فكان إصدار (الظهير البربري) عام ١٩٣٠، محاولة لإسكات الكفاح المسلح، ولتمزيق النسيج الاجتماعي الموحد للمغاربة، فضلا عن محاولة تشكيل كيانية عرقية ودينية خارج إطار الانتماء الوطني العربي الإسلامي للمغرب. وعلى هذا

(١٢) محمد علي داهش: الشريف احمد الريسوني، حياة وجهاد، دار الحياة، (تطوان ١٩٩٦)، ص ٤٣ ـ ٧١.

(١٣) محمد علي داهش: جمهورية الريف في مراكش ١٩١٩ ـ ١٩٢٦، رسالة ماجستير غير منشورة، معهد الدراسات القومية ـ الجامعة المستنصرية، (بغداد ١٩٨٣)، الفصل الثاني والرابع والخامس.

(١٤) الفاسي: الحركات الاستقلالية، ص ١٠٥ ـ ١٠٨؛ داهش، جمهورية الريف، ص ٧٤ ـ ٧٥.

الأساس أعلنت سلطات الاحتلال الفرنسي (الظهير البربري) في ١٦ أيار / مايو ١٩٣٠، فقام المغاربة بجهد موحد ضد هذا المشروع الاستعماري، فكانت بداية انطلاق الحركة الوطنية السياسية في المغرب.

مر الكفاح العربي ضد (الظهير البربري) بثلاث دوائر متزامنة ومتداخلة: لكن مجموع الدوائر عبرت عن غضب شعبي عام قاده علماء الدين والمثقفون ومن ورائهم الشعب المغربي وظهيره العربي الإسلامي.

تمثلت الدائرة الأولى بالبربر أنفسهم، فقد رأوا فيه اعتداء صارخا على دينهم وشريعتهم ومقدساتهم وأعلنوا تمسكهم بهويتهم الدينية والوطنية، فعارضوه وقاوموه بقوة وصلابة[١٥]. ولعل ابرز مواقف الاستياء والمعارضة للظهير البربري تجمع الحشود البربرية حول المحاكم التي أقامتها السلطات الفرنسية المحتلة، وإعلانها انهم لا يريدون إلا الإسلام وتطبيق الشريعة الإسلامية، وأرسلوا الوفود إلى السلطان محمد الخامس (١٩٢٧ ـ ١٩٦١) يطالبون بإرسال القضاة الشرعيين ومحاكم شرعية إسلامية، وقد تعرض البربر لحملات القمع والاضطهاد والاعتقال وصلت إلى أربعة آلاف رجل. ولم تقف مقاومة البربر عند ذاك، بل عملوا على مقاطعة البضائع الفرنسية[١٦].

بدأت الدوائر الأولى تتوسع في محيطها الاجتماعي المغربي حيث اتحد البربر والعرب ووقفوا وراء القوى الوطنية لمواجهة السياسة الاستعمارية التي

(١٥) صفوان ناظم داؤود حسن، العراق وقضية التحرر والاستقلال المغربي ١٩٢١ ـ ١٩٥١، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة الموصل، (الموصل ٢٠٠١)، ص ٢١.

(١٦) غلاب، المصدر السابق، ج١، ص ٧٣ ـ ٧٥، القطان، المصدر السابق، ص٧٨ ـ ٧٩.

هددت وحدتهم الوطنية وانتمائهم الديني والقومي والحضاري. ولعل ابلغ تعبير عن هذا الاتجاه الوطني والديني والقومي تلك القصيدة التي أطلقها أحد البربر من سجون فاس جاء فيها:

يالطيف ألطف بقـــوم	هم ضحايا الوطنيـة
بشباب قد تفانـــــى	لا يرى الجلد دنيـــة
لا يرى السجن مصابا	لا يرى الشنق رزيـة
هم بنو العز ســـراة	هم بنو النفس الأبيـة
شيدوا للدين مجـــداً	بيمين عربيـــــة
وابو للديـــــن إلا	وحدة للابديـــــة
وحدة أخلص فيـــها	مضر للبربريـــــة
تلكم نهضـــــة عرب	جددوها مغربيـة[١٧]

ان وضوح الطابع العدواني على الهوية الدينية والعربية أدى إلى انتقال المواجهة المغربية إلى الدائرة الأوسع والأشمل وطنيا والتدرج في المواجهة من الدعوة إلى تعميم اللغة العربية والتعليم الديني الإسلامي واحترام اللغة العربية في الإدارات والمحاكم وتوحيد برامج التعليم، إلى التصلب في الموقف لمواجهة صلافة الإصرار الفرنسي على تطبيق (الظهير البربري). فقد تجمع الوطنيون المغاربة ومن ورائهم الشعب في مساجد العاصمة فاس وبقية المدن الكبرى، وألقيت الخطابات وتأججت المشاعر، وخرجت جموع المتظاهرين إلى شوارع البلاد في

---

(١٧) صحيفة الهداية، (بغداد)، العدد (٢٦)، في ١٩٣٠/١٠/١٠، وانظر حسن، المصدر السابق ص ٢٥ ـ ٢٦.

أوائل حزيران / يونيو ١٩٣٠ متجهة صوب مقر الحاكم العسكري الفرنسي في فاس للتعبير عن احتجاجهم. وقد ردت السلطات المحتلة على المتظاهرين بالعنف والإرهاب والاعتقال لقيادات وقواعد الحركة الوطنية، وتمخض عن ذلك إعلان الإضرابات العامة، ووقوع الإصطدامات بين الشعب وقواه الوطنية وبين السلطات الفرنسية المحتلة، فيما قامت الأخيرة بإعلان الأحكام العرفية[١٨]. وعلى الرغم من ذلك، تواصلت الاضطرابات والتظاهرات والاصطدامات الشعبية العارمة ضد سلطات الاحتلال حتى أواخر أيلول / سبتمبر من عام ١٩٣٠. وفي الجهة المقابلة، أصرت السلطات المحتلة على الاضطهاد والملاحقة والاعتقال، فضلا عن احتلال وتدنيس المساجد واقفالها أمام المصلين[١٩].

أما في منطقة الاحتلال الأسباني، فقد قام الشعب المغربي وقواه الوطنية بالاحتجاج على (الظهير البربري) وتقديم الاحتجاج إلى سلطان المغرب محمد الخامس، والى المقيم العام الفرنسي لوسيان، والى وزارة الخارجية الفرنسية[٢٠] وعبر هذا الموقف في الشمال المغربي عن الوحدة الوطنية المغربية على صعيد الشعب وقواه الوطنية في منطقتي الاحتلال الثنائي، وكانت البداية لتنسيق العمل الوطني على طريق الحرية والاستقلال والوحدة المغربية.

---

(١٨) الفاسي، الحركات الاستقلالية، ص٤٥ ـ ٤٦؛ غلاب المصدر السابق، ج١، ص٧٥ ـ ١٠٠.

(١٩) الحسن بو عياد: الحركات الوطنية والظهير البربري، دار الطباعة الحديثة، (الدار البيضاء ١٩٧٩، ص١٧ ـ ١٨)؛

المالكي، المصدر السابق، ص١٥٩ ـ ١٦٠، القطان، المصدر السابق، ص٧١ ـ ٧٤.

(٢٠) غلاب، المصدر السابق، ج١، ص٧٧، حسن، المصدر السابق، ص٢٢؛

القطان، المصدر السابق، ص٧٣.

استمر الشعب المغربي وقواه الوطنية في مقاومة (الظهير البربري) وإصرار السلطات الفرنسية المحتلة على فرضه واستكماله بقرارات لاحقة، لا بل ان الأخيرة شددت من قبضتها على المغرب بعد انتهاء مرحلة الكفاح المسلح عام ١٩٣٤، وأصدرت قرارا آخر في العام نفسه يؤكد سياستها البربرية وسعيها إلى الفصل العنصري والديني، واتخذت الوسائل القمعية لمنع المغاربة من المطالبة بحقوقهم المشروعه وإيصال صوتهم المنتقد والمعارض والمواجه للسياسة البربرية، وحضرت عليهم الاجتماعات الحرة، وعطلت الصحف الوطنية، كما منعت دخول الصحف والمجلات العربية على الرغم من محدوديتها، وحذرت من تحركات علماء الدين والوعاظ ومنعتهم من إلقاء المحاضرات الدينية الحرة خوفا من تنوير الشعب وتوعيته على سياستها الاستعمارية في المجالات كافة، وفي العدوان على الهوية العربية والدينية خاصة[٢١].

ان الإجراءات القمعية لسلطات الاحتلال الفرنسي لم تثن الشعب المغربي بأجمعه عن الاستمرار في المواجهة وتنظيم الجهود السياسية لتفعيل المواجهة ضد الاحتلال الفرنسي فتوسعت المواجهة للسياسة البربرية بالدائرة الثالثة، حيث وقف الشعب العربي وواجهاته الدينية والوطنية إلى جانب الشعب المغربي وجهاده الوطني في دفاعه عن الهوية، وعن الحرية والاستقلال والوحدة الوطنية.

(٢١) القطان، المصدر السابق، ص٦٩.

الموقف العربي من فرنسا وسياستها البربرية

آثار (الظهير البربري) وسياسة فرنسا في المغرب موجة عربية من استياء والإدانة والاستنكار والرفض والدعوة إلى نصرة الشعب المغربي في كفاحه ضد ما أسموه بـ(الحرب الصليبية). ولم يتوقف الأمر عند هذه الحدود بل كان للفعل المغربي والعربي المقاوم للسياسة البربرية صداه العميق بين المسلمين في لبعض الدول (اندنوسيا ـ الهند ـ جاوة)، فكان للدائرة الثالثة دور هام في تدعيم المواجهة المغربية بظهيرها العربي والإسلامي.

كتب أحد الصحفيين الفرنسيين (دانيل جوردان) ما يؤكدها التوسع في المواجهة المضادة للسياسة البربرية قوله: (وقد أراد رجال الاستعمار ان يفرقوا بين العرب والبربر لكي يسودوا، فأثاروا بذلك عاصفة كبرى في المغرب، عاصفة انتشرت فوق ربوع العالم الإسلامي ولا يستطيع أحد ان يعرف مغبتها)[٢٢].

ان الموقف العربي وقع على عاتق الشعب وواجهاته الدينية والثقافية، في معظم الأقطار العربية. ففي العراق وقف الشعب العراقي وواجهات الرأي العام فيه من صحافة وجمعيات دينية، فضلا عن المثقفين إلى جانب الشعب المغربي، وتابعوا تطورات الأحداث منذ عام ١٩٣٠ والحقبة اللاحقة، ودعوا إلى وقفة جماعية للدفاع عن الإسلام ضد ما أسموه (الحرب الصليبية العصرية)[٢٣].

---

(٢٢) نقلا عن القطان، المصدر السابق، ص٩١.

(٢٣) صحيفة الهداية، الأعداد (٢٤-٣٢) أيلول ـ كانون أول ١٩٣٠ وانظر: حسن المصدر السابق، ص ٧٣-٧٤.

وكان للجمعيات الدينية (جمعية الهداية الإسلامية – جمعية الشبان المسلمين) والمثقفين من الشعراء، الدور الأبرز في تصدر الموقف الشعبي العراقي في مرحلة الثلاثينات وفي الكشف عن أهداف المخطط الفرنسي وإثارة الرأي العام الوطني والعربي والدولي للوقوف ضد فرنسا وسياستها العدوانية ضد الإسلام والمسلمين. وكان لعلماء الدين والشعراء دورهم الكبير في إثارة الشعب العراقي وقيامه بالاحتجاجات والاستنكار والعمل لدعم القضية المغربية. فقد احتج الشعب العراقي في العاصمة بغداد وفي معظم المدن العراقية على (الظهير البربري) والأعمال العدوانية تجاه الإسلام والمسلمين في المغرب[٢٤] كما اهتم المثقفون من الشعراء بقضية المغاربة وكفاحهم ضد فرنسا وسياستها البربرية، وأشاروا إلى مخاطر (الظهير البربري) على الإسلام والمسلمين، و أكذوا على تمسك المسلم ودفاعه عن دينه لأنه (كنزه) الذي يرخص له الغالي والنفيس[٢٥].

كان لموقف الشعب العراقي من قضية المغرب وما يعانيه شعبه من ويلات السياسة الفرنسية في المجالات كافة، وفي السياسة البربرية خاصة، صداه الكبير عند الشعب المغربي وقواه الوطنية وتقديره الكبير لهذا الموقف، وشعورهم بثقله وتأثيره، يؤكد ذلك قيام (كتلة العمل الوطني المغربية) بإرسال نداء إلى (جمعية الهداية الإسلامية) في الذكرى الرابعة لصدور (الظهير البربري) عام ١٩٣٤ لنشره في صحيفة (الهداية) دعت فيه الشعب العراقي إلى نصرة المغاربة ضد إصرار السلطات الفرنسية على تطبيق سياستها البربرية ومما جاء في النداء:

---

(٢٤) انظر بالتفصيل:

القطان، المصدر السابق، ص ٩٨-١٠٣؛ حسن، المصدر السابق، ص٩٤-٩٩.

(٢٥) صحيفة الهداية، العدد (٢٣) ، في ١٩٣٠/٩/١٨؛ وانظر تفاصيل اكثر، حسن، المصدر السابق، ص١١٧ _ ١٢٧.

(... إلى علماء الإسلام في الشرق، والى زعماء الأقطار العربية المجاهدين في سبيل الحرية والوحدة، إلى فطاحل الإسلام وعقلائه، إلى كل هيئة وحزب وجمعية ومؤسسة نرفع نداءنا هذا، و نرجوا المعاضدة والمساعدة الدائمية، والى كل صحيفة تخدم مبدأها وتعمل لغاياتها، نوجه رغبتنا في كلمة تنطق بها، كلمة صدق تنشرها...)

وانتهت إلى تأكيد استمرار المقاومة المغربية للسياسة البربرية (حتى ينتصر الحق على الباطل)[٢٦].

وكان الشعب الفلسطيني وواجهاته الدينية / على الرغم من الاحتلال البريطاني والغزو الاستيطاني الصهيوني /، موقفه الواضح في تأييد كفاح الشعب المغربي في مواجهة السياسة البربرية، فقد قام (المجلس الإسلامي الأعلى) في القدس بالاحتجاج على الحكومة الفرنسة مؤكدا (... ضم صوته إلى أصوات مئات الملايين من إخوانه المسلمين ... بشأن ان تعدل حكومة فرنسا عن هذه الخطة التي تحمل أمة بأسرها على الخروج من دينها الذي إرتضته واطمأنت له نفوسها وتعاملت بشرعيته وأحكامه منذ الأجيال البعيدة...)، كما احتجت (جمعية الشبان المسلمين) على (الظهير البربري) وأكدت (... إن أعداء الإسلام مافتئوا يفكرون في كيفية الاستيلاء على العالم الإسلامي واستعمار أقطاره والهيمنة عليها... وأخيرا رأوا أن يسلكوا طريقا انجح وسبيلا أسرع في القضاء على الدين إسلامي بانتزاع مبادئه وقرآنه من صدور المسلمين...) وفي احتجاجها إلى عصبة الأمم أكدت ما نصه: (نحتج اشد الاحتجاج على ظلم فرنسا وعسفها بإجبار مسلمي البربر

(٢٦) صحيفة الهداية، العدد (١٥٨)، في ١٦ صفر ١٣٥٣ هـ (١٩٣٤)؛ وانظر تفاصيل اكثر، حسن، المصدر السابق، ص٩٧ ـ ٩٩.

على اعتناق الدين المسيحي، ذلك العمل المثير لسخط الإنسانية جمعاء)[٢٧] وفي عام ١٩٣١، انعقد في القدس المؤتمر الإسلامي العام الذي اشترك فيه ممثلو جميع الأقطار العربية وبعض الدول الإسلامية، وتم خلال المؤتمر طرح جميع مشكلات العالم الإسلامي آنذاك ومن ضمنها قضية المغرب[٢٨].

أدان المؤتمر الإسلامي المنعقد في القدس عام ١٩٣١ سياسة فرنسا في المغرب وإصدارها (الظهير البربري) ورفع المؤتمرون احتجاجهم إلى عصبة الأمم مؤكدين أن الظهير البربري (عدوانا صارخا على الحرية الدينية وكرامة الدين الإسلامي... والكف عن تلك الأساليب التبشيرية الخطيرة...)[٢٩]. وعلى هامش المؤتمر وانطلاقا من إحساس عميق بالمعاناة القومية العربية تحت وطأة الهجوم الشرس على العرب والإسلام من قبل الغرب الاستعماري والصهيونية العالمية، عقد ممثلو الأقطار العربية (المغرب – الجزائر – تونس – الحجاز – سوريا – لبنان – فلسطين – العراق – مصر) جلسة تمخض عنها (ميثاق عربي) اقره المؤتمر الإسلامي جاء فيه:

١. ان البلاد العربية وحده تامة لا تتجزأ وكل ما طرأ عليها من أنواع التجزئة فان الأمة العربية لا تقره ولا تعترف به).

(٢٧) القطان، المصدر السابق، ص ١٠٢.

(٢٨) عادل حسن غنيم، المؤتمر الإسلامي العام في القدس ١٩٣١، مجلة شؤون فلسطينية، العدد (٢٥)، (بيروت ١٩٧٣)، ص ١١٩ – ٢٣٠؛ حسن، المصدر السابق، ص ٩٦ – ٩٧.

(٢٩) القطان، المصدر السابق، ص ١٠٣ – ١٠٤.

٢. توجيه الجهود في كل قطر من الأقطار إلى وجهة واحدة هي استقلالها التام كاملة موحدة، ومقاومة كل فكرة ترمي إلى الاقتصار على العمل للسياسات المحلية الإقليمية.

٣. لما كان الاستعمار بجميع أشكاله وصيغة يتنافى كل التنافي مع كرامة الأمة العربية وغايتها العظمى، فان الأمة العربية ترفضه وتقاومه بكل قواها)[٣٠].

كما احتج الشعب السوري ضد (الظهير البربري) على الرغم من الاحتلال الفرنسي لسوريا، إذ قام (٥٠) ألف نسمة من أبنائه (حماه) بالاحتجاج وتقديم ذلك إلى وزارة الخارجية الفرنسية عن طريق المندوب السامي في بيروت ورئيس الحكومة السورية جاء فيه: (... وكان لهذه الأعمال المخالفة للحرية الدينية الوقع السيئ والاستغراب العظيم في العالم الإسلامي، ولا ريب أن مثل هذه الأفعال تفقد منا الثقة بالدول المنتدبة وتنذرنا بوقوع مثله بين ظهرانينا فباسم العدل وباسم ثلاثمائة مليون من المسلمين يجتمع الشعب العربي في حماه على اختلاف طبقاته على هذه الأعمال المنافية لنزعة فرنسا الديمقراطية ويرجو أن تتحاشى أن يسجل عليها التاريخ ما سجله على غيرها من الدول الهمجية)[٣١].

ومن لبنان وبلاد الشام جميعا، انطلق الأمير شكيب ارسلان ليؤدي دوره القومي والديني تجاه أمته العربية، منبها إلى خطورة سياسة فرنسا في المغرب، وحذر من أن نجاح فرنسا في إلغاء الشريعة الإسلامية بين البربر سيقودها حتى

(٣٠) صحيفة الصراط المستقيم، العدد (٨٤/٢٧)، في ١٩٣١/١٢/١٧.

(٣١) أبو عياد، المصدر السابق، ص ٢٠٦.

إلى إلغائها بين العرب أنفسهم فيما بعد، وتمثل ذلك في رأيه تحول المغرب إلى (أندلس ثانية)[٣٢] ولم تقف جهود ارسلان على الوسط العربي، بل تعداه إلى داخل المجتمعات الإسلامية وأهاب بالمسلمين جميعا إلى الوقوف والتصدي للسياسة الفرنسية[٣٣] كما نقل (القضية البربرية) إلى الرأي العام الأوربي من خلال صحفه ومقالاته، أدان بشدة سياسة فرنسا والمتعاونين معها من دول الغرب[٣٤].

وكان للشعب المصري وواجهات الرأي العام فيه، من علماء الدين والصحافة والجمعيات الإسلامية، دوره من الإدانة والتشهير بالسياسة الفرنسية ومخاطرها على الإسلام والمسلمين في حالة تبنيها من قبل الدول الأوربية الأخرى، ودعوا إلى المقاطعة الاقتصادية لفرنسا وإرسال الاحتجاجات إلى عصبة الأمم والى رئيس الجمهورية الفرنسية[٣٥] إذ قام علماء الأزهر بإرسال نداء إلى ملوك المسلمين وشعوبهم جميعا احتجوا فيه على السياسة البربرية المقيتة في المغرب، وناشدوا العالم الإسلامي باستنكار (الظهير البربري) وحثوا المسلمين على ان يبذلوا كل طاقاتهم من اجل إفشال هذه السياسة الاستعمارية، وطالبوا فرنسا بالرجوع عن (مؤامراتها) وختموا نداءهم بتحريض المسلمين على بذل الغالي والنفيس في سبيل الدين الإسلامي، ونبهوا على مخاطر تلك السياسة الفرنسية

(٣٢) ظاهر محمد صكر: شكيب ارسلان ودوره السياسي ١٨٩٦ _ ١٩٤٦، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة بغداد، (بغداد، ١٩٩٠)، ص ١٥٦.

(٣٣) أنور الجندي، الفكر والثقافية المعاصرة في شمال أفريقيا، الدار القومية للطباعة والنشر، (القاهرة، ١٩٦٥)، ص ١٠٢.

(٣٤) صكر، المصدر السابق، ص ١٥٧ _ ١٦٢.

(٣٥) بو عياد، المصدر السابق، ص ٧٦ _ ٧٩.

مؤكدين (... ان فرنسا إذا أمكنها تطبيق مشروعها في المغرب فستحذوا حذوها جميع دول أوربا، وقد وجب عليكم في هذا الحال بذل أنفسكم وأموالكم في سبيل الدفاع عن دينكم الذي يمنعكم منه)[٣٦].

كما احتجت الجمعيات الإسلامية في مصر (جمعية الهداية الإسلامية – جمعية الحضارة الإسلامية – جمعية المحافظة على القرآن – جمعية الإصلاح – جمعية اللواء الإسلامي...) على الظهير البربري والتشهير بالسياسة الفرنسية ودعوا إلى مقاطعة البضائع الفرنسية والتمسك بالدين الإسلامي، كما طالبوا عصبة الأمم بالقيام بواجبها لردع فرنسا عن سياساتها العدوانية[٣٧] واستمر موقف الشعب المصري مثلما هو في الأقطار العربية الأخرى على الإدانة والاستنكار والدعوة إلى تشديد النضال ضد (الظهير البربري) على الأصعدة كافة، وضمن هذا الإطار اصدر مؤتمر المركز العام لجمعيات الشبان المسلمين في القاهرة، بيانا أدان فيه سياسة فرنسا وأسبانيا في المغرب وطالب فرنسا (إلغاء السياسة البربرية القائمة على تنصير عشرة ملايين مسلم مغربي) كما حذر المؤتمرون حكومة فرنسا (من التمادي في سياستها المعادية للإسلام في المغرب الأقصى والتي تثير غضب المسلمين في العالم الإسلامي...)[٣٨].

وعبر الشعب التونسي على إدانته لتدخل الحكومة الفرنسية في الشؤون الدينية للمغاربة وأكدوا تعارض ذلك مع نصوص معاهدة الحماية لعام ١٩١٢،

---

(٣٦) صحيفة الهداية، العدد (٢٣)، في ١٨ / ٩ / ١٩٣٠.

(٣٧) القطان، المصدر السابق، ص ٩٣ ـ ٩٦.

(٣٨) صحيفة العالم الإسلامي، الجزء الأول والثاني، السنة (١)، ص ١٢١.

وأعلن أن السياسة البربرية (حرب صليبية جديدة) على بلاد تدين بالإسلام منذ ثلاثة عشر قرنا، وأدان الممارسات القمعية والاعتقالات الجماعية بحق الشعب المغربي[٣٩] إذ احتج الأهالي من صفاقس على الظهير البربري (الذي يرمي إلى التفرقة بين البربر وبين إخوانهم في الدين من المغاربة)[٤٠] كما قام علماء وطلبة تونس والجزائر وليبيا والمغرب الدارسون في الأزهر برفع احتجاجهم إلى رئيس الوزارة الفرنسية مؤكدين ان إصدار (الظهير البربري) (... عمل لا يجيزه قانون ولا تسمح به شريعة ولا يرضى به مسلم ولا غير مسلم ممن يحترمون الشرائع الدينية والعهود، لذلك نحن نستصرخكم وندعوكم باسم الدين والإنسانية والعهود المقطوعة ان ترجعوا عن ذلك المرسوم الذي يؤلم اكثر من ٣٠٠ مليون مسلم في اعز شيء لديهم...)[٤١].

ان المقاومة المغربية وظهيرها الشعبي في الوطن العربي بقيت مستمرة ومتصلبة في الدفاع عن هويتها الدينية والعربية وعن حقوقها الوطنية في الحرية والاستقلال والوحدة الوطنية والدينية والقومية لأنها أدركت مخاطر هذا المشروع الاستعماري الذي لا يقتصر في عدوانه على (الهوية) وحسب، وإنما يسعى إلى وضع القطر المغربي والدائرة الإقليمية والعربية في حالة من اللا استقرار والتوتر للوصول إلى تحقيق استراتيجية في التفتيت والتفكيك القومي والديني والحضاري الذي يهدد الأمة العربية جمعاء في حاضرها ومستقبلها.

---

(٣٩) أبو عياد، المصدر السابق، ص ٣٢٧.

(٤٠) أبو عياد، المصدر نفسه، ص ١٠٤.

(٤١) نفسه.

Abstract

The Arab Attitude toward "The Barbarian Dhahir" in Morrocco

Dr. Mohammed Ali Dahish(*)

Safwan Nadhim Dawood Hassan(**)

There are many aims behind the occupation of France for Arabian Maghrib, one of these aim was (the aggression) against the Islamic Arabic Identity and the adoption of racial discrimination between Arabs and the Barbers. That policy was embodied since its occupation in 1912 till 1956 through its group of laws especially what called of "Barbarian Dhahir" in 1930, which aimed at leaving out the religion and the Arabic language and joining them towards France and christianity. The people of Morocco both Arabs and Barbers as well as the Arab people and the Islamic world stood against the French policy.

(*) Department of History, College of Arts, University of Mosul.

(**) Department of History, College of Arts, University of Mosul.